

الخطاب الوصفي في نثر الجاحظ

رسالة دكتوراه نوقشت في ٢٤/٧/١٤٣٤هـ (٣ يونيو ٢٠١٣م)، بقسم الأدب، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

هيفاء بنت محمد الفريح

أستاذ مساعد، قسم الأدب، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الوصف، الخطاب الوصفي، السرد القديم.

ملخص: يعد الخطاب الوصفي من الرهانات النقدية في السرديات الحديثة وتحليل الخطاب، كيف الحال، وهو يقارب أهم المتون السردية القديمة التي تركها لنا الجاحظ، إذ يحتاج إلى الاقتراب منه فهماً وتوصيفاً، وهذا ما حاولت هذه الأطروحة الاشتغال عليه، إذ انتقلت بنا من الوصف من حيث هو مكون سردي إلى الخطاب الوصفي الباحث في مقتضيات تشكلاته اللغوية والأسلوبية، باحثة عن حدوده ومحدداته، خابرة موضوعاته، واقفة عند أنظمتها التحليلية، متخذة من النتائج العملية التي توصل لها "فيليب هامون" في بحثه عن الوصفي منطلقاً لها.

وغيرها. نثر عَلمٍ عُدَّ أدبه علامة مفصليّة في تاريخ النثر العربي، وفي تاريخ الإنسانيات الكونية (L'humanisme). عَلمٌ ساهم في تأسيس نظرية الأدب في مفهومه الموسوعي بإجماع الكثير من النقاد والمؤرخين. إذ "كانت مؤلفاته مصدراً للإنشاء الأدبي الحي ومدرسته في النثر قائمة برأسها. نهج على صورتها أشهر أعلام النثر العربي بعده" (صمود، ٢٠١٠م، ١٣٢).

وعلى الرغم من هذه الأهمية لنثر الجاحظ؛ فإنّ نتاجه لم ينل حقه من الدراسات التي تكشف أسرار أدبيته؛ إذ ظلّ الكثير منها يدور حول الحمى، ولا يرتع في الأرض

"الخطاب الوصفي في نثر الجاحظ" موضوع تتقاطع فيه ثلاثة مجالات كبرى: مجال الخطاب الواسع وما يشتمل عليه من أبعاد لسانية لغوية، بدءاً من الجملة ومروراً بالمقطع، فالأثر، فالجنس الأدبي.

ومجال الوصف المرتبط بجماليات الإدراك من صور وأشكال وألوان وأبعاد وأحجام، حيث إنه الأداة الأساسيّة التي تمثّل الواقع إن لم تدع تفسيره؛ ليؤدّي بذلك أولى مهام الأدب وأكبرها. ومجال الأدب القديم متمثلاً في نثر عَلمٍ من أعلام القرن الثالث الهجري بنتاجه الواسع المتنوع الأجناس ما بين نادرة وخبر ورسالة ووصية ومفاخرة

ولكي تُعطى تلك الرؤية الانطبائية الحاذقة بعداً موضوعياً لا ييسر ولا يسطح التعقّد الذي يميّز به النصّ الجاحظي؛ تحتم دراسة نثر الجاحظ في هذا التقاطع الثلاثي بين الخطاب وأحد أنواع الخطاب وفضاء الخطاب؛ سعياً إلى بناء دراسة أدبية مقننة عن مكونات الكتابة الوصفية لديه؛ عبر الاستفادة من المنجز الغربي حول نظرية الوصف. فالخطاب الجاحظي مادة مغرية لاكتشاف مدى نجاعة التفاعل بين آليات البحث في النظريات الحديثة والمادة الأدبية المستمدة من العالم القديم؛ لاسيّما أن مكانة الجاحظ الأدبية انبنت - أساساً - على طريقته الخاصة في الكتابة وابتداعه الأساليب؛ إذ "لم يكن همّه همّ غيره من المؤلّفين في الجمع والرواية والحفظ، وإنما كان وكده أن يبتكر وأن يُطرف، وأن يخلق للناس بديعاً" (هارون، ١٩٩٦م، ٧/١). واختيار هذا الموضوع (الخطاب الوصفي) - تحديداً - راجع إلى شحّ الدراسات العربية التي تناولت الخطاب الوصفي عموماً، وندرته في النثر القديم على وجه الخصوص، فثمة دراسات أُمحت - لا محالة - إلى قيمة النص الجاحظي وإلى ثراء ثقافة الجاحظ الوصفية، وإلى معرفته بمجتمعه، وإلى قدرته على المفاضلات، وإلى مهارته في تشويق المعاني. لكن هذه الإشارات لم تنتظم في دراسة نظرية معمّقة تجمع بينها وبين مكتسبات النظرية الوصفية المعاصرة، وتسخرها في تفسير إدراك الجاحظ للعالم من حوله^(٣).

كما أنّ هذه الدراسة تحاول الاقتراب من نظرية مازالت البحث فيها شحيحاً رغم أهميتها؛ فمع أن الوصف عريق (٣) يمكن الرجوع إلى مقدمة الأطروحة؛ ففيها استعراض تفصيلي لتلك الدراسات.

الخصبة الواهبة أكلها لمن يريد حصادها؛ ذلك أنّ العديد من الدراسات تناولت أدب الجاحظ من الخارج، والقليل منها التفت إلى دراسة أدبه من الداخل^(١).

ومن المواطن التي أظهرت عبقرية الجاحظ: مهارته العالية في رسم الشخصيات، وتحليل دوافعها النفسية الكامنة وراء تصرفاتها، وتصويره البيئية التي عاش فيها^(٢).

(١) كُتب عن نصوص الجاحظ الإبداعية مئات الدراسات المختلفة المشارب، ومع ذلك، فإنّ عالمه الأدبي مازال بحاجة إلى فحص نقدي عميق يستخرج سماته الأسلوبية والبنائية والدلالية. وهذا الذي لم تتجه الدراسات المعتمدة على المناهج التاريخية أو الاجتماعية أو النفسانية كدراسات شارلا بلا وطه الحاجري وحسن السندوبي وشفيق جبيري وشوفي ضيف وغيرها من الدراسات التي ربطت نصوص الجاحظ بحياته في البصرة وبغداد وبطبيعة شخصيته، ملحقة ذلك بالاستنباط والتأمل. ولم تتحه أيضاً الكتب والمقالات التي اعتمدت على معايير المنهج الانطباعي الارتسامي القائم على الذوق أو الأحكام المسبقة حول مكانة الجاحظ العظيمة؛ لتُحصر أدبيته بعبارات التمجيد، أو بموازنته بغيره من الأدباء. وهذا لا ينفي وجود دراسات اهتمت بالخطاب الجاحظي وتحليله وفاق مناهج مستمدة من مكونات الخطاب الأدبي كالمناهج النبوي في كتاب فدوى مالطي دوغلاس "بناء النص التراثي"، و"بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان" لخولة شخاترة، أو كالمناهج الأسلوبية في دراسة أحمد بن محمد بن إمبريك في كتابه "صورة بخيل الجاحظ الفنية"، أو كنظرية الحجاج في كتاب علي محمد علي سلمان "كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج".

(٢) ذكر ذلك دارس نصوصه، الذي أمضى معها رداً من الزمن - شرحاً وتحقيقاً - الأستاذ طه الحاجري، في قوله: "ولعلّ أول الصفات الفنية تجلياً هو البراعة في الوصف، والدقة في التصوير". البخلاء، الجاحظ، تحقيق: طه الحاجري، دار المعارف، مصر، ٦٤، (د.ت)، ص ٤٨.

أضافها على تحقيقي: فان فلوتن، وأحمد العوامري بك وعلي الجارم بك. وكتاب "الحيوان" معتمدة على نشرة عبد السلام هارون، في طبعته الثانية، الصادرة في مصر ١٩٦٥م. و"رسائل الجاحظ" المجموعة من مصادر مختلفة من المخطوطات والمطبوعات من مكتبة داماد بتحقيق وشرح عبد السلام هارون، والصادرة عام ١٩٦٤م. وكتاب "التربيع والتدوير"، نشر وتحقيق شارل بلا، الصادر عن المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٥٥م. ولقد استثنيت "البيان والتبيين"؛ لأن غالب نصوصه من المرويات، وتندر فيه المقاطع الخطابية ذات الصبغة الإبداعية.

تضمنت هذه الدراسة مدخلاً تاريخياً مفاهيمياً نظرياً حول شتى مقولات النقد عن الوصف قديمها وحديثها في التمهيد. تُتبع فيه رؤى النقد القديم المتناثرة في كتب ابن طباطبا، وابن رشيق، والجرجاني، وحازم القرطاجني... وغيرهم. ودراسات النقد الحديث عن الوصف عند أشهر أعلامه كفيليب هامون، وجان ميشيل آدم، وأندري بيتي جون، وباتريك شارودو.

ثم ابتداءً الفصل الأول بدراسة أصغر وحدة في الخطاب وهي الجملة تحت عنوان: أساليب الوصف، وقد انتظم في بحثين: الوصف بالخبر والوصف بالإنشاء؛ رغبة في كشف السمات الأسلوبية للخطاب الوصفي الجاحظي. من هذه السمات: تكرار بعض الصيغ الصرفية أو التراكيب النحوية بشكل لافت للنظر كصيغة [أفعل التفضيل] ولأسلوب [النفى] ولأسلوب الاستفهام]. وقد تمت تلصق الظواهر الأسلوبية عن دلالات عدّة، منها: وصف النموذج المثالي، ووصف البنية الثقافية، وأداء الغرض السجالي في الوصف.

عراقة القصص، إذ هو في أبسط مظاهره قائم على عملية إظهار الشخصيات، والأمكنة، والأشياء؛ فإنّ النقد العرب القدامى لم يتكلّموا عنه إلا في نطاق الشعر، أو عند حديثهم عن أساليب البيان والمجاز والتمثيل. إضافة إلى تقصير الدراسات النقدية الحديثة في حقّ النصوص السردية القديمة، والنصوص المتمحّضة للوصف كأدب البلدان والطبائع، دراسةً وتحليلًا، رغم الزخم الوصفي الظاهر في خطابها، حتى بعد معرفتنا أبعاد نظرية الوصف التي نشطت منذ الثلث الأخير من القرن المنصرم^(٤).

فانطلاقاً من أهميّة قراءة تراثنا العربي بأسلوب جديد، وبآليات نقدية منهجية حديثة، وعلى أساس علمي يرقى بهذا التراث المتميّز في محاولة لإبراز مكوناته وملاحمه، وإعطائه حقه وقيّمته وعمقه ومكانته؛ جاءت هذه الدراسة مستمرة ما توصلت إليه الدراسات الوصفية الحديثة عبر الاعتماد على المنهج النسقي الإنشائي، الذي استكمل به المنظرون للوصف ما شاب النظريات السردية من نقص في هذا المجال. يسانده مجالاً البحث اللذان سيطرا على الدراسات النظرية الوصفية وهما المجال السيميائي ويمثله فيليب هامون، ومجال اللسانيات النصية ويمثله بصفة خاصة جان ميشال آدم وأندري بوتتي جون وفرانسواز ريفاز.

والمدونة التي مثلت مادة البحث، فهي: كتاب "البخلاء"، تحقيق طه الحاجري للتعديلات والتعليقات التي

(٤) بدأ الباحثون الغربيون يهتمون بالوصف وبطرائق بنائه منذ نشر فيليب هامون مقاله: Qu est-ce qu'une description, 1972، وكتابه (Du descriptif) بطبعته الأولى عام ١٩٨١م وكذلك فيما نشره ميشيل آدم وأندريه بيتي جون في كتابهما المشترك (Le texte descriptif المنشور عام ١٩٨٩م).

الألوان والأشكال التي يمكن أن يؤديها الرسم، فقد تحمّل الجاحظ بلغة واحدة مسؤولية تعويض كافة الأنظمة العلامية في عالمه الاجتماعي والنفسي، المادي والمعنوي على السواء.

أما الفصل الرابع، فقد تناولنا فيه وظائف الوصف، وقسمناها إلى ثلاثة مباحث، عني المبحث الأول بالوظائف المتعلقة ببنية النص الداخلية كالوظائف البنيوية السردية المرتبطة بالحكاية والمتعلقة بالخطاب، والوظيفة التفسيرية، والوظيفة التعبيرية. وعني المبحث الثاني بالوظائف الخاصة بالكتاب، سواء ما اشترك فيه الجاحظ مع غيره من الكتاب كالوظيفة التزيينية، أو ما ارتبط بشخص الجاحظ كالوظيفة النفسية، والوظيفة الإيديولوجية، والوظيفة المعرفية. واهتمّ المبحث الثالث بالوظائف المرتبطة بالمتلقي، كوظيفة الإيهام بالواقع، والوظيفة الإمتاعية، والوظيفة الحجاجية.

وهذه الوظائف العديدة المتنوعة للوصف دليل على الدور الكبير الذي يلعبه في النص الأدبي. ثم إنّ تقسيمها إنّما هو تقسيم منهجي ونسبي؛ فمن الممكن أن تتداخل هذه الوظائف وتترابط؛ لتحقق أكثر من وظيفة متناغمة. فرسالة الترييع والتدوير - على سبيل المثال - وظيفتها الكبرى نفسية خاصة تشي بإثبات الجاحظ تفوّقه على الكتاب بشكل عام، وعلى ابن عبد الوهاب بشكل خاص، ووظيفة أدبية أراد بها الجاحظ أن يتحدّى الشعراء في غرض اختصّ به الشعر وهو الهجاء، وكذلك وظيفة إمتاعية تستهدف نفوس القراء وأذواقهم.

وأخيراً يأتي الفصل الخامس لنخرج فيه من الخطاب إلى التفاعل بين الخطابات ومن النص (Text) إلى النصومية (Textuality) ومن الإنشائية البنيوية والوظائفية إلى

وتلاه الفصل الثاني بعنوان: موضوعات الوصف، تمّ فيه استعراض أبرز الشخصيات والفضاءات الموصوفة، وعبرهما تجلّى تبني الجاحظ لمحاكاة الواقع بما فيه من محاسن ومثالب، فقدم لنا صورة حقيقية عن بعض فئات المجتمع في عصره، كل فئة بحسب الظروف الحافّة بها دون تمويه أو مواراة. كما بدا في هذا الفصل عدم سجن الجاحظ شخصياته وفق قالب شكلي محدد، بقدر ما كان مهتماً بتقديم وثائق تاريخية للعديد من المظاهر الحضارية والأجناس البشرية في القرن الثالث الهجري.

ثم جاء الفصل الثالث بعنوان: أنظمة الوصف وطرائقه، تجلّت فيه بوضوح إمكانية الاستفادة من تقنيات المنجز الوصفي المعاصر، وفيه جاوزنا الجملة إلى تحديد المقاطع الوصفية وضبط حدودها والبحث في الآليات المتحكّمة فيها، ثم توصلنا إلى تجريد أنظمة مختلفة؛ مبعثها ما حُفر في ملكة الجاحظ الذهنية الإدراكية وما ترسّب في بنية اللغوية العميقة. وقد انعكست في نصوصه بنسب متفاوتة وفق حاجة الجنس الأدبي الذي يقوم عليه النص؛ فالوصف الهندسي يغزر في أدب الطبائع، والوصف الكمي يكثر في أدب المفاخرات، والوصف المشهدي يكثر في النوادر الموجزة. واستخلصنا من خصائص نظام الوصف في خطاب الجاحظ أن اللغة الطبيعية في الكتابة تعوّض أنظمة جمالية مختلفة: تعوّض اللغة الدرامية بما تقتضيه من حركات وإشارات وإيقاعات. فقد بني الجاحظ نادرة البخيل على المشهدية والفرجوية (الأفعال الدالة على الأحوال) ولكن بالعلامات اللغوية فقط، وعبر أحياناً عن أسفه وعن عجز النظام الوصفي اللغوي عن محاكاة المشهد الفرجوي. كما عوّضت اللغة الطبيعية المكتوبة أنظمة

٢- دحضت هذه الدراسة اعتقاد بعض النقاد بحلول السرد القديم من الوصف^(٥)، كما صححت بعض الأحكام الجائرة التي أطلقها بعض الباحثين على وصف النصوص التراثية بعامة، ووصف الجاحظ على وجه التخصيص.

٣- وصف الشخصية عند الجاحظ قائم على العدول المتواصل، وعلى كسر رتبة الخطّ الوصفي، بل على مفاجأة القارئ كلّ مرّة بلمح أو بزاوية نظر تدلّ على أنّ الشخصية القصصية عنده تنتمي إلى عام متحرك. ووصف الفضاء لديه جزء من مشروعه السردي بخاصة والمعرفي بعامة.

٤- انبنى خطاب الجاحظ الوصفي للشخصية على تعدّد الأصوات الذي عرفه القرن الثالث الهجري في بيئة البصرة، وأظهر قدرته على سبر أغوارها النفسية وانتماؤها الاجتماعية، ولوّن وصفه لها بحسب أوضاعها وأصواتها.

٥- سعى الجاحظ إلى ترسيخ النموذج، فكان الوصف عنده وصفاً لثقافة الفرد، وللملحمة التكوينية، وخصائص اكتسابه للمعرفة المهنية. بدا ذلك جلياً في وصفه القينة والجندي التركي والبخيل - مثلاً - .

الإنشائية الحوارية وذلك بدراسةٍ نزع منها جديدة على الدراسات المهمة بالوصف؛ حيث تناولنا فيها الوصف المولّد للجنس الأدبيّ، مثبتين أنّ أبا عثمان استطاع بذلك النوع من الكتابة المعتمدة بالدرجة الأولى على الوصف التأسيسي لأجناس أدبية قشبية كأدب الطبايع وأدب النماذج الاجتماعية وأدب الرسم الساخر. استطاع الجاحظ بفضل الولوع بمراقبة الناس والأشياء أن يجمع كما هائلاً من القصص والمواقف التي اختبرها بنفسه - كما ذكر ذلك في مقدمتي رسالتيه: "المعاش والمعاد" و"ذم أخلاق الكُتّاب" - فوصفها من خلال المعرفة الاجتماعية والمعرفية النفسية ببواطنها، في أكثر من نص، وأكثر من سياق، وعبر أجناس شتى كالخطب والرسائل والوصايا وال نوادر والأخبار؛ ليؤسّس بذلك النوع من الكتابة المعتمدة بالدرجة الأولى على الوصف لأجناس أدبية كان لها أثر في النثر العربي، كالمقامات عند بديع الزمان الهمذاني، وكتاب "التطفيل وحكايات الطفيليين" للخطيب البغدادي، و"الحمقى والمغفلين" لابن الجوزي، وكتاب "الثقلاء" لمحمد بن إسحاق الصيرمي، و"طبائع النساء" لابن عبد ربه الأندلسي. هذا الجنس هو ما يُسمّى بـ (أدب الطبايع) أو (أدب السجايا).

ثم أنهي البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج في هذا

الموضوع، منها:

١- أثبتت هذه الدراسة قدرة اكتساب الوصف ميزة الاستقلال النسبي؛ بدليل قيام نصوص كاملة عليه، كرسالتي: "القيان" و"التربيع والتدوير". كما كشف تحليل النصوص، وعلى الأخص السردية أنّ العمليات الوصفية هي جوهر مهارته الفنية ولّبها.

(٥) منهم سامي سويدان حيث قال: " يبدو أن النثر القصصي القديم أكان دينياً أو إخبارياً أو شعبياً، لم يعط الوصف هذا الاهتمام الخاص، فالأهمية فيه معطاة للحكاية والسرد". أبحاث في النص الروائي العربي، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص ١١٧. وهذا لا يتناقض مع إشارتنا في نهاية التمهيد من قلة الدراسات عن الوصف؛ فالوصف موجود في النصوص لا محالة.

حتى لو كان الموصوف واحداً؛ ذلك أن أبا عثمان لا يتتصر إلا لعقله وحسب. فهو عندما يصف شيئاً في موطن ثم يذكر ما يناقضه في موطن آخر إنما يستعرض مهارته العقلية وبراعته في المنطق وسوق الحجج.

١٢- أسهم الخطاب الوصفي الذي كتبه الجاحظ مفرداً في رسائل خاصة في توليد نماذج اجتماعية مخصّبة فنياً. كنموذج التركي الذي أثبت عبره إمكانية الوصف عبر معجم واحد، ونموذج القينة الذي حوّل معه مسار وصف جسم المرأة إلى وصف حركة ذلك الجسم. وبذلك أثبت أن أدبية النص لا تكمن في مضمونه، بل في الطريقة التي يصرف بها الأديب موضوعاته عن غايتها الاجتماعية وبعدها الواقعي إلى نشاط ثقافي. وهي طريقة فذة في عطف أعناق القراء ودعوتهم إلى التنزّه في معابر الشيء الموصوف واستكشاف أسراره.

١٣- أدّى وصف الجاحظ إلى ظهور أجناس أدبية جديدة، وهي ليست بالضرورة أجناساً متميزة مستقلة في سياقها الخارجي وبالنسبة إلى أفق انتظار التلقي الآني والتعاقبي، بل إنها متداخلة ومزروعة في صلب الأجناس القديمة والرفيعة. هذا النوع من الأدب فتح الباب على مصراعيه لمن تلا الجاحظ من أدباء في الكتابة الأجناسية المتنوعة تحت موضوع واحد، كما في كتابي: "الأذكىاء" و"أخبار الحمقى والمتغافلين" لابن الجوزي.

١٤- أثمرت الكتابة الساخرة المخصّصة لوصف شخصية مهجوة بعينها، مباراة الشعر في مجال من أشهر مجالاته، وتوليد نصوص محتذية لتربيع وتدوير الجاحظ كرسالة أبي حيان التوحيدي "مثالب الوزيرين"، و"الرسالة الهزلية" لابن زيدون و"رسالة الخوارزمي" للبيهي.

٦- الجاحظ موسوعة ذهنية معمارية معرفية لكثير من العلوم، تعتمد بدرجة كبيرة على الخطاب الوصفي في إنشائها أو في دراستها؛ لذا لم يكن الوصف عنده حصراً على القضايا الأدبية، بل تعدّها إلى القضايا العلمية وإلى قضايا أخرى مثل المسائل الاجتماعية والحضارية والفكرية مما يدخل في مجال الإنسانيات.

٧- امتلك الجاحظ ثقافة معرفية متنوّعة، ساندتها حصيلة لغوية واسعة، فأكسبته قدرة وصفية هائلة عند تقطيعه الأشياء باللغة، وتنظيمها في عالم الخطاب، ووصفها بتفريعات تترى.

٨- جرد تحليل النظام الوصفي طرقاً مختلفة ومتنوعة للوصف، مبعثها ما حُفر في ملكة الجاحظ الذهنية الإدراكية مما رأى أو سمع، ومما ترسّب في البنية اللغوية العميقة. انعكست في سديم نصوصه بنسب متفاوتة وفاق حاجة الجنس الأدبي الذي يقوم عليه النص؛ فالوصف الهندسي يغزر في أدب الطبايع، والوصف الكمي يكثر في أدب المفاحرات، والوصف المشهدي يكثر في النواذر الموجزة.

٩- الوصف في الخطاب الجاحظي متأسس وفاق نظريته البيانية التي تكلم عنها في رؤاه النقدية.

١٠- لا وجود في نثر الجاحظ لوصف يخلو من وظيفة، بل إنّ المقطع الوصفي الواحد قد يحقق أكثر من وظيفة في النصوص الأدبية عامة، بله نصوص الجاحظ المعروفة بانفتاحها على أكثر من مخاطب وابعادها على أكثر من مقصد.

١١- المحرّك الموضوعي في جلّ كتابات الجاحظ هو أن للحقيقة وجهين وأن المعنى شيان متضادان متكافئان؛ لذا جاء خطابه الوصفي متراوحاً بين الإيجاب والسلب،

وبعد، فإنَّ نشأة النظرية الوصفية المعاصرة في بيئة غربية صرف، وارتباط منجزها بالرواية الواقعية غالباً، قد حتمًا مراعاة خصوصية النص التراثي الثقافية والأدبية معاً، وذلك عند الاستفادة من هذا المنجز. فالمنطلقات مختلفة والمدونات المعتمدة متباينة، فضلاً عن تباعد الأوساط الثقافية والمعرفية التي نشأ فيها تراثنا العربي ونشأت ومازالت تنشأ فيها النظريات الغربية. لكن هذا الأمر لم يقف عائقاً بقدر ما كان محفزاً، ثبت من خلاله تعدد أوجه الثقافة واستمرار حركة التأثر والتأثير بين الآداب؛ ذلك أن استثمار تلك الدراسات المقننة في تراثنا الأدبي يعين على قراءة جادة تكشف ما يتسم به من عمق، وما يرتكز عليه من أسس، وما يربط بين نصوصه المنفرقة من سمات مشتركة.

لقد حاولنا حدّد الخطاب بمدخل متعدّد، منها ما هو مختصّ بالجملة ثم ما يجاوزها إلى المقطع، ثم النص؛ إذ جاءت دراسة الجملة محاولةً أسلوبية رامت معرفة أشهر الصيغ الصرفية والتراكيب النحوية المترددة في خطاب الجاحظ الوصفي، وعلاقة ذلك بتكوينه النفسي ومكتسباته الحضارية وذاكرته الجمالية. وجاءت دراسة المقطع استجابةً للهدف معرفية توّد اختبار مدى ملائمة منجز النقد الحديث للنصّ الأدبيّ القديم عامة، والنص الجاحظي خاصة؛ لما في وصفه من إدهاش لا ندرك كُنْهه. وجاءت دراسة الأثر الأدبي كاملاً إجابة عن سؤال أجناسي ما فتى يطرق ذهن المهتمين بالتطور الأجناسي الذي طبع عصر الجاحظ.

وبناءً على ذلك؛ فإنّ هذا البحث رام دراسة النص الجاحظي من خلال تحليل خطابه الوصفي، بدراسة

أما عن أهم التوصيات، فتتمثل فيما يلي:

١- تفتتح قراءة أدب الجاحظ على أكثر من مجال، وهذا مناسب للخطاب الوصفي، الذي يتيح لأيّ باحث في علم النفس والاجتماع والسياسة والعلوم الإنسانية عامة أن يعمل أدواته فيه. فثراء هذه الآثار تمكّن من يستقرؤها من قراءات متعدّدة اجتماعية وفسانية وسياسية وحضارية، لا سيّما الأنثروبولوجية المتصلة بالمعيش اليومي وبنظرة الإنسان القديم إلى العالم.

٢- الوصف مجال رحب للدراسات الأسلوبية، الدقيقة القائمة على حصر الصيغ الصرفية الوصفية، أو التراكيب النحوية التي جرى فيها العدول. فالالتفات إلى ذلك سيقدم دراسة موضوعية دقيقة تسهم في إعطاء النص الجاحظي حقه من منطلق موضوعي، لا عاطفي.

٣- اعتماد الجاحظ على حاسة البصر في وصفه، وتركيزه على عنصر اللون يحمل دلالة خاصة من جهة طبيعته النفسية. ولا ريب في أنّ هذه الملحوظة بحاجة إلى بحث مستقلّ يتناول صلة الوصف بالإدراك في عقل الجاحظ.

٤- السعي إلى تصحيح مصطلح الوقفة الوصفية؛ مفهوماً وتوظيفاً في كتبنا النقدية.

٥- تخصيص رسالة "التربيع والتدوير" بدراسة أجناسية تبيّن تأثيرها في الرسائل التي حذت حذوها؛ لأنها تكوّن مجتمعة أفق انتظار أجناسي وجمالي واحد وضع أسسه الجاحظ في التربيع والتدوير.

٦- تعريب المنجز النقدي الغربي فيما يخصّ الدراسات المؤلفة عن الوصف؛ إذ تعاني المكتبة العربية فقراً شديداً في ذلك؛ حيث لم يُترجم منها إلا أحد كتب فيليب هامون "في الوصفي".

أساليب الوصف، وتحليل أنظمتها الدلالية، ومن ثم إبراز أهمية ذلك الخطاب في تمثيل المرجعية الاجتماعية والثقافية والجمالية. كما طمح إلى الإسهام في مشاركة من يحاول أن يثري الدراسات القليلة جداً عن الخطاب الوصفي. هذا الخطاب الذي لم يواكب صنوه: الخطاب السردى في مستوى الدراسات المقدمة عنه باعتراف منظريه الغربيين . كما قامت على محاورة المكتسبات النظرية الحديثة بما يتلاءم والنصوص التراثية؛ التي لها خصوصيتها، ولها قيمها التداولية وخصائصها التخاطبية في العصر الذي كتبت فيه؛ لأن قيمتها المرجعية عالية الكثافة.